

أمة الإسلام حلف من المؤمنين الأحرار

جماعت حرة متحدة في المبادئ والغايات ، والمسلم اخو المسلم ،
والمسلمون إخوة ، والمسلمون يد واحدة على من سواهم ، تنكفاً
دمائهم ، يرد عليهم أقصاهم ، ويعقد عليهم أديانهم . (من خطبة رسول
الله ﷺ بعد فتح مكة) . (الواقدي ٢ / ٨٣٦) .

أحسب أن هذه الدراسة قد طالت وجاوزت المؤلف في الدراسات التي
تنشر منجمة في الأسبوعيات ، ولقد بدأنا عرض نص الكتاب أو الصحيفة أو
الدستور في حديثنا الماضي . وفي هذا الحديث والذي يليه نستتم عرض بقية مواد
الصحيفة في إيجاز . . ولم يكن الاستقصاء الشاق الوافي غرضنا من هذه
المقالات ، إنما غايتنا أن نبين للناس أهمية هذه الصحيفة ، فهي بعد القرآن
الكريم وبقية الأحاديث النبوية ، تعطينا خطأ جديداً واضحاً في الفكر السياسي
الإسلامي الأصيل ، بعيداً عما أدخل عليه وأقحم فيه من آراء جاهلية وأفكار
غير إسلامية انحرفت بمسار الفكر السياسي عندنا انحرافاً لم يجعل منه فكراً
سياسياً أصيلاً ، إنما هو مواعظ وأمانى وتقسيات وتقنيات هالكة لا يتحصل منها
شيء ، نجدها في كتب الأحكام السلطانية ومواعظ الملوك ومرايا الأمراء التي
يسمونها بعض الناس بالفكر السياسي الإسلامي ظلماً منهم وعدواناً .

وقد قرأنا عند ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق فاتحة الصحيفة ، ثم المادة الأولى منها ، ونصها كما يلي : « وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم » .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ - هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

وقد ناقشنا المادة الأولى على قدر ما تيسر لنا ، ولكننا نحب أن نؤيد صحة الوثيقة نصاً ومعنى بنص قرآني وهو قول الله تعالى في الآية ٧٤ من سورة الأنفال :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

ألا نجد هنا كل العناصر المكونة للأمة الإسلامية الأولى كما وردت في فاتحة الصحيفة ومادتها الأولى ؟ .

فكيف يتطرق إلى أحد شك في أصالة هذه الصحيفة بعد ذلك ؟ .

والمادة الثانية من الصحيفة تقول عن هذه العناصر . . إنها تؤلف الأمة فيما بينها ، وتقول عنهم الصحيفة « إنهم أمة واحدة من دون الناس » .

وتلك هي النقلة الكبرى في تاريخ أمة الإسلام : إلغاء القبلات

والعصبيات واعتبار المؤمنين والمسلمين من قریش وشریب ومن تبعهم فالحق بهم
وجاهد معهم « أمة من دون الناس » .

الإيمان بالله هو الرابطة ، والجهاد في سبيل الله هو الغاية .

ومن الرابطة والغاية تتكون الأمة ، إنها أمة البشر جميعاً من المؤمنين ،
يربطهم بعضهم إلى بعض الإيمان الواحد ، ووظيفتهم وغايتهم الجهاد في سبيل
الله ، فأين هذا من ديانة بنى إسرائيل التى تقول - فى زعمهم - إنها رابطة بين
أسباط إسرائيل من دون البشر ، ومن عداهم كفار ، سواء أكانوا مؤمنين بالله أم
لم يكونوا مؤمنين .

والعبرة فى تكوين أمة الإسلام على هذا النحو هى أن أى جماعة حية نشيطة
عاملة لا تكون عاملة فى سبيل الخير حقاً إلا إذا كان لها إيمان يجمعها ، ولا تزال
بخير مادامت لها غاية تسعى إلى تحقيقها ، فإذا تلاشت الغاية العليا انتهت الأمة
أو الجماعة كقوة فعالة فى بناء البشر ، وصانعة للتاريخ .

واذكر معى هنا قول الله سبحانه فى سورة الحجرات ، آية ١٣ : ﴿ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

أجل . . . كلنا أولاد أب واحد وأم واحدة .

وجعلنا الله شعوباً مثل شعب مصر وشعب العراق وشعب الشام وشعب
الهند وشعب الصين وشعب اليونان والرومان .

وجعلنا كذلك قبائل مثل قبائل العرب والبربر والترک والمغول والتتار ،
ولا يخرج أهل الأرض فى الجاهلية أى ما قبل الإسلام ، عن أن يكونوا إما قبائل
وإما شعوباً .

ثم جاء الله بالإسلام ليتعارف بعضنا على بعض ، لنكون أمة واحدة هي أمة الإيمان ، وليكون المقياس الوحيد بيننا هو التقى أى تقوى الله ، وهي أم الفضائل ، و« رأس الحكمة مخافة الله » .

* * *

والمادة الثالثة تبين لنا العناصر المكونة للأمة ، وهم المهاجرون من قريش ، وخمس وحدات قبلية من الخزرج ، هم بنو عوف وبنو ساعدة وبنو الحارث وجشم وبنو النجار .

وإذا نظرنا إلى جدول أنساب الخزرج وجدنا أن هذه الوحدات الخمس تجمع كل الخزرج .

وثلاث وحدات من الأوس هم بنو عمرو بن عوف وبنو النبيت وبنو الأوس ، والمراد بهم مجموعة من ثلاث قبائل أوسية ، وهم وائل وأموية وعطية ويطلق عليهم معا اسم الجعادرة .

وهذه الوحدات الثلاث هي كل الأوس .

وبنو الأوس المذكورون هنا كانوا يسمون أوس مناة ، وقد تأخر إسلامهم إلى مابعد الخندق ، أى أنهم دخلوا الأمة دون إسلام ، ينطبق عليهم هنا ماجاء في المادة الأولى : « ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم » .

ومحمد ﷺ لم يكرههم على الإسلام بل تركهم لأنفسهم حتى هداهم الله للإيمان فدخلوا فيه . .

وتستوقف نظرنا هنا العبارة التي ترد مع كل وحدة قبلية من هذه ، وهي عبارة لا تتغير إلا فيما يتعلق بقريش ، وهي :

« المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين » .

وينوعوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

ومعنى « على ربعتهم » . ينظمون أمورهم على الطريقة التي مضوا بها إلى الآن مادامت لا تتعارض مع الإسلام .

ويتعاقلون معاقلمهم الأولى : أى يشتركون فيما بينهم (على دنهم) فى دفع ديات من يقتلونه أو يجرحونه من غيرهم ، تعويض من قتل أو جرح منهم على اشتراك بينهم فى ذلك . أما المهاجرون فقد تركوا - بهجرتهم - معاقلمهم أى دياتهم ، فهم يشتركون فى دفع دياتهم الجديدة مشتركين .

وماذا نستنتج من النص على ذلك مع كل وحدة قبلية واحدة واحدة من هذه الوحدات القبلية بالاسم ؟ معناه أن أمة الإسلام من الممكن أن تتألف من وحدات سياسية كل منها مستقلة عن الأخرى فى شئونها الداخلية وشئونها المالية بشرط أن تجتمع كلها على الإيمان والجهاد والذيادة عن حوض الأمة وأراضيها كلها مجتمعة .

وسترد شروط أخرى بعد ذلك ، ولكن هذا هو المهم . ومعنى ذلك أن أمة الإسلام الواحدة تجمعها روابط الإسلام والجهاد مادامت تشترك معا فى شئون الدفاع عن أوطانها التي يجعلها الإسلام وطناً واحداً . ومعنى ذلك - مرة ثانية - أن أمة الإسلام الجامعة ، أمة الأحرار ، لم يكن من الضروري قط أن تخضع

لنظام سياسى واحد أو لسلطان مركزى واحد . . بل يمكن أن تربط وحداتها بعضها إلى بعض رابطة رمزية هى التى سماها أبو بكر « خلافة » . . وهى مصطلح بعيد كل البعد عن معنى الملك أو السلطان أو الدولة أو الإمبراطورية . وذلك هو لباب الفلسفة السياسية لأمة الإسلام .

إنها ليست إمبراطورية ولا كسروية ولا قيصرية تخضع الناس لسلطان واحد بالقهر والقوة ، بل هى رابطة الإيمان التى لا تمس كرامة شعب من شعوبها أو وطن من أوطانها . فكما أن كل فرد فى هذه الأمة حر مادام ملتزماً بالإيمان بعقيدة الأمة مرتبط معها بروابط الجهاد والدفاع عن الدين وحماية وطن الأمة العام الواحد ، فكذلك كل وحدة من وحداتها كان من الممكن أن تظل قائمة بذاتها وشخصيتها ومقوماتها داخل رباط وحدة الإيمان الواحد والهدف الواحد .

وأبو بكر عندما قرر حرب المرتدين لم يفعل ذلك عقاباً لهم على الرغبة فى الاستقلال بمواطنهم وشؤونهم ، بل محافظة منه على الوحدة الروحية والمعنوية للأمة ، ولهذا حاربهم على الامتناع عن إيتاء الزكاة وهى شىء رمزى ، وعندما عادوا إلى إيتاء الزكاة ترك كل جماعة منهم حرة فى مواطنها ومنازلها ، وطلب إليها أن تشارك فى الجهاد دون أن يحتل أراضيها بقوة عسكرية ، ودون أن يقيم على كل منها حاكماً .

ولهذا سُمى الرسول ﷺ رجاله بالعمال ، جمع عامل ، والمراد به العامل على الصدقة (والعاملين عليها) والصدقة أو الزكاة هى رمز إخاء المسلم للمسلم أو حق المسلم على المسلم ، والعامل فى الحقيقة ليس حاكماً إنما هو الرجل الذى يرسله الخليفة ليعمل على تحقيق معنى الإخاء بالعمل على الصدقات أو الزكوات .

هنا نفهم الفرق بين عمال أبى بكر هؤلاء وعمال معاوية الذين كانوا مرازمة وحكماً عسكريين من أمثال زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف

ويوسف بن عمر وخالد بن عبد الله القسرى .

أمة الإسلام إذن فدرالية ، مثلها في ذلك مثل الكانتونات السويسرية أو الولايات المتحدة الأمريكية . قررها الرسول وأصحابه ونفذها السويسريون والأمريكيون ، أما نحن فانتكسنا وارتكسنا وجعلناها كسروية أو قيصرية . رأيت معى الانكسار القاتل الذى أصاب الاتجاه السياسى الإسلامى ؟ .

وهل فهمت إذن لماذا قلت لك إن كل اتجاه الفكر السياسى عند المسلمين كان خارج نطاق أمة الإسلام كما أرادها الرسول وأصحابه ؟ . . كل هذا الفكر السياسى دار حول « الخلافة الملك » أى الكسروية أو القيصرية تحت ستار من خلافة ، بالاسم ، وهى ملك فى الواقع .

كل جماعة منهم حرة فى مواطنها « تتعاقل معاقلها الأولى وتفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين » . . . وأبو بكر لم يرسل إلى منازل القبائل حكاماً أو قوات عسكرية ترابط فيها ، بل دعاهم إلى الاشتراك فى الجهاد فاشتركوا فيه وفتحوا ومدلوا رواق أمة الإسلام .

هنا نفهم الفرق بين عمال الرسول ﷺ وعمال أبى بكر وعمر من ناحية ، وعمال معاوية بن أبى سفيان وأبى عبد الله السفاح ومن جاء بعدهما من ناحية أخرى ، فهؤلاء الأخيرون كانوا مرازبة (جمع مرزبان وهو الحاكم العسكرى الفارسى) أو حكاماً عسكريين روماناً Praefectus - Praefectus وأمثلتهم - كما قلنا - زياد بن أبىه وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف ويوسف بن عمر ويزيد ابن أبى مسلم ، فهؤلاء لم يكونوا عمالاً لخليفة مسلم ، إنما كانوا نواب ملوك Vicerius يضربون الناس ويذلونهم ويحبسونهم ويقتلونهم ، وواحد منهم دبر اغتيال الحسين بن على رضى الله عنه وعن آله أجمعين .

أمة الإسلام إذن - نتيجة لما قلناه - فدرالية أو تحالف وحدات سياسية كل منها مستقلة بذاتها وشخصيتها وإقليمها وتقاليدها ونظام العمل الداخلي (على ربعتهم) فيما لا يتعارض مع دستور الأمة العام ، وهو هنا القرآن والسنة ، ومن السنة هذه الصحيفة ، وهي سنة أقرها النبي ﷺ وأملاها باللفظ الذي أقرته به الأمة لا بلفظه ﷺ لأنه أراد أن تلتزم بها الأمة لفظاً ومعنى .

إنها فدرالية وليست دولة مركزية ، مثلها في ذلك اتحاد الكانتونات السويسرية Con Federtio Heloetica والولايات المتحدة الأمريكية .

أما نحن فانتكسنا وارتكسنا وجعلناها إمبراطورية أو كسروية أو قيصريه . ألفينا كل أساس الأمة الإسلامية وروح التنظيم فيها ، ثم جلس فقهاؤنا يتناقشون فيمن يحق له أن يكون الخليفة القيصر أو الخليفة الإمبراطور ، وجعلوا الأمة قطيعاً من الغنم - رعية . . .

هل فهمت إذن لماذا قلت لك : إن كل اتجاه الفكر السياسي الإسلامي عند أصحاب السلطان ورجالهم ونصحائهم لم يكن إسلامياً ؟ . . ومن بين هؤلاء النصحاء وهم جزء لا يتجزأ من التركيبة السياسية والاجتماعية العامة ، أو ما يسمى بالاستابليشمنت Establishment وهو مفهوم نترجمه ترجمة حرفية خاطئة فنقول المؤسسة ، وما هو المؤسسة إنما هو النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي القائم لجماعة معاً . . أيا كان شكله واتجاهه .

* * *

والمادة الرابعة تقول : وأن المؤمنين لا يتركون مفرجاً - أو مفرحاً - بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

والمفرج (بالجيم) هو المسلم الغريب الذى يدخل فى جماعة إسلامية ناجياً
بدينه من جماعته الكافرة ، والمفرح (بالحاء) هو المثقل بالدين .

وسواء أكان هذا أم ذاك فإن الفكرة وراء المعنيين إسلامية صرف ، فإن
واجب الجماعة حيال هذا وذاك هو أن تعطيه فى حدود المتعارف عليه لكى يفتدى
نفسه إن كان أسيراً بين قومه الأولين ، أو يؤدى دينه إن كانت عليه دية (عقل) .

هنا أيضاً يتأكد معنى التضامن والتكافل بين أفراد الأمة . هنا كذلك نرى
أن كل القواعد الأخلاقية التى تسير عليها الجماعة قواعد جماعية أو أخلاقيات
جماعية ، أى الأخلاقيات التى يتطلبها الإنسان لأمة متآخية متكافلة .



والمادة الخامسة سياسية اجتماعية : « ولا يحالف مؤمن مولى دونه » والحلف
المراد هنا هو رابطة ولاء أو موالاة بين رجلين ، وهذا الحلف يستتبع التزامات
مالية وسياسية واجتماعية بين الإنسان ومن يدخل فى حلقه أو ولائه ، فالحليف
على شرط العرب إذ ذاك ملزم بأن يقف مع حليفه فى حالات الخلاف والنزاع ،
وهو ملزم بأن يؤدى عنه دينه لأنه ضامنه ، ويؤدى كذلك دينه أو دية ماجرح أو
اقترب ، ومن ثم فلا يجوز أن يحالف مؤمن مولى مؤمن دون علمه أو على رغبته .



والمادة السادسة تقول : « وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى
وسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين » .

فهى إذن مادة تنظيم سياسى اجتماعى وتشريع داخلى لتنظيم الأمور داخل الأمة أو الجماعة .

فالمؤمنون المقصودون هنا هم المتقون ، أى الذين يراعون الله ويخافونه ويتصرفون فى حدود ما أمر ونهى وشرع ، وهؤلاء هم الأمة أو جماعة أهل الإيمان ، وهم ملزمون جماعياً أن يقوموا على من تعدى حدوده وتعدى على حقوق غيره (وسبعة ظلم) أو اقترف أى مخالفة للقانون الخلقى الإسلامى ، أو ارتكب عدواناً صريحاً على الجماعة أو فرد منها ، أو حاول الفساد أو الإفساد بين المؤمنين . هؤلاء جميعاً تقف الأمة كلها فى وجههم وتنزل بهم العقاب .

هنا نرى كيف أن الصحيفة تجعل القوة الحقيقية والسلطان كله للأمة ، ولها - كما سنرى - أن تختار من يقوم بذلك بتفويض منها ، ولكن المسئولية تظل مسئولية الأمة كلها فى كل حالة ، ولا يشفع لها شيء فى أن تترك باغياً يبنى عليها أو على فرد من أفرادها ، أو ظالماً يرتكب الإثم والفساد داخل الأمة ...

ثم انظر إلى المادة التالية وهى السابعة ، فهى مكملة لهذه ومؤكدة لمعنى سلطة الأمة وواجبها نحو تنظيم أمورها وإقرار الأمن والقانون داخل نطاقها مهما كانت الظروف : « وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم » ...

أجل .. الأمة وسلامة الأمة والحفاظ على السلام والأخلاق داخل الأمة مسئولية الأمة كلها ، حتى لو اختارت من يقوم بذلك باسمها ، فإن ذلك لا يعفيها من المسئولية الجماعية ، وواجبها هذا ملزم حتى حيال الأبناء ، وهذا هو الذى أراده أبو بكر عندما قال : أيها الناس ، قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنتم فأعينونى وإن أسأت فقومونى .

هنا يعترف أبو بكر بسلطان الأمة ، ويقول إن اختيار الأمة إياه لا يعفيها من المسئولية ، فإذا هو أحسن القيام بها اختارته الأمة له فعليها أن تعينه ، وإن هو

أساء أو عجز عن القيام بمسئوليته فللأمة أن تقومه ، والتقويم هنا - بلفظ أبي بكر - بغير حدود ، فقد يصل إلى العزل أى سحب الأمة تفويضها واسترداد حقها لتتصرف فيه كما تريد . .

أليست هذه أيها القوم هي الديمقراطية في حكم الأمة ، أرسى قواعدها الله سبحانه وطبقها رسوله ، ثم نسيناها ومضينا الآن نتعلمها من غيرنا ؟ .



والمادة الثامنة تقول : ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن . وهذا تأييد لوحدة الأمة ومسئولية المؤمن حيالها ، فهذه أمة المؤمنين الذين يؤمنون بالله ورسله وكتبه ، والكفار هم أعداؤها ممن لا يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، والإيمان بالله سبحانه ورسوله وبقية رسله وكتابه وبقية كتبه هو أساس الوجود الإنساني كله ، فكيف يجوز مع هذا أن يقتل المؤمن أخاه المؤمن في كافر عدو لله والإنسانية ؟ وكيف يجوز له أن ينصر كافراً أى عدواً لله والإنسانية على مؤمن ؟ .

وإلى الذين يشكون في أصالة هذه الصحيفة أقول : إن الواقدي أتانا في مغازيه بنص خطبة رسول الله ﷺ بعد فتح مكة ، فردد في خطبته نفس المادة الثامنة من الصحيفة ، قال : ولا يقتل مسلم بكافر .



والمادة التاسعة تقول : وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أديانهم . والذمة هي الأمان ، وذمة الله هي أمان الله ، والمراد أن أى عضو من أعضاء الأمة مهما

صفر . . له الحق في أن يجير أى يمنح الأمان لأى إنسان (بشرط ألا يكون محدثاً أو مقترفاً جناية) حتى الكافر تجوز إجازته وإضفاء الأمان عليه لعل ذلك يكون أدعى لإسلامه .

وقد أيد الرسول صلوات الله عليه هذا المبدأ ، واستند إلى نفس نص هذه المادة التاسعة من الصحيفة عندما أسر أبو العاصى بن الربيع زوج السيد زينب بنت الرسول في موقعة بدر ، فلما علمت بذلك زينب بعثت في فداء زوجها الذى فرق الكفر بينها وبينه ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاصى حين بنى عليها ، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها ما لها فافعلوا . وأخذ الرسول عليه عهداً أن يخل سبيل زينب وكانت لا تزال بمكة ، فأخلى أبو العاصى سبيلها ، ولحقت بأبيها في المدينة ، وبعد ذلك بقليل خرج أبو العاصى في تجارة له فأسره الناس وأتوا به وبإاله إلى المدينة ، وتحابل أبو العاصى حتى وصل بيت زينب فاستجار بها فأجارته (وكان لا يزال كافراً) .

فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح من اليوم التالى ، وكبر وكبر الناس ، خرجت زينب من صفة النساء وقالت : أيها الناس ، إنى قد أجزت أبا العاصى ابن الربيع . فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : أيها الناس هل سمعتم ماسمعت ؟ فقالوا نعم ، قال : أما الذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشيء حتى سمعت ماسمعت ، إنه يجير على المسلمين أذنانهم ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى ابنته وقال : أى بنية ، أكرمى مشواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له . . ثم لم يلبث أبو العاصى أن أسلم وعاد إلى زوجته . .

فهنا نرى أن رسول الله ﷺ يستشهد بنص مادة كاملة من الصحيفة ، وفي الخطبة التى ألقاها رسول الله ﷺ بعد فتح مكة نقرأ عند الواقدي : « والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة ، يد واحدة على من سواهم ، تتكافأ دماؤهم ، يرد

عليهم أقصاهم ، ويعقد عليهم أدناهم ، ومشدهم (قويم) على مضغهم (قويم) وميسرتهم على قاعدهم .

وهنا يردد الرسول نص المادة بعبارة ولفظه هو وهما أبلغ معنى ومبنى ..

والمادة العاشرة تقول : « **وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس** » .
والولاء تحالف الرجل مع الرجل على النصر والمعاونة ، فأنت مولاه وهو مولاك والوليان متساويان ، وفي الحديث : « **الولاء لحمة كلحمه النسب** » (بضم اللام) فالولى قريب الولى ، والمعنى المراد أن المسلمين أقارب ، وهم أسرة واحدة من دون الناس ، وليس أبلغ من هذا في توكيد رابطة أخوة الأمة ووحدتها عقيدة ودما ...

وتؤيد نص هذه المادة ومعناها آية كريمة هي الثانية والسبعون من سورة الأنفال .. حيث نقرأ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَلَجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا لَوْلَاكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ۞ .

والمادة الحادية العشرة تقول : « **إنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم** » ..

وهذه المادة تعطى بعداً سياسياً وإنسانياً للأمة وصحيفتها ، فهي سلم لمن يسلمها وحرب لمن يعادها ، فإذا تبع يهود المدينة أمة الإسلام وسالموها ودخلوا في حلفها ، فإن الأمة تنصرهم وتساوى بينهم وبين المسلمين في الوضع السياسي ، وتعاملهم معاملة المسلمين ولا تجور أو تعتدى عليهم ولا تناصر عدواً لهم عليهم ..

ومعنى هذا أن هذه المادة كتبت بعد مناقشات وأخذ ورد مع اليهود ، فقد بدأ الرسول يدعونهم إلى الإسلام فأبوا إلا قليلاً منهم ، ولكنهم عرضوا أن يدخلوا في حلف الأمة وولائها ، فتشاور الرسول مع أصحابه في ذلك ثم مع اليهود ، فشرط لهم واشترط عليهم ، وانتهى الأمر إلى نص هذه الموادة ، وكان رجاء الرسول عظيماً في أن تكون هذه الموادة سبيلاً إلى إسلامهم كما حدث مع غيرهم كثيرين .

ونص هذه المادة يدل على أن هذا القسم الأول من الصحيفة قد كتب قبلاً موقعه ، وسنرى أن الأمر سيتغير بعدها . . .

والمادة الثانية عشرة تقول : «وإن سلم المؤمن واحد ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » ..

ونحن هنا أمام نص سياسى صرف ، فما دامت الأمة واحدة فإن سلمها واحد ، ولا يحل لمؤمن أن يسالم عدواً أثناء قتال في سبيل الله إلا على اتفاق وتشاور وتراض بين المسلمين في ذلك .

ويؤكد هذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة (الآيتين ٢٠٨ ، ٢٠٩) وقد أنزلت هاتان الآيتان قبل بدر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وقد ذكرنا أن هاتين الآيتين أنزلتا قبل بدر ، وكان الكثير من القبائل قد سالم المسلمين نتيجة للغزوات والسرايا الأولى التي سبقت بدرًا ، فكان بعض المسلمين يخطيء فيغير على بعض من سالم الأمة من جيرانها ، فكان نزول هاتين

الآيتين مؤيداً لمعنى مافى الصحيفة ، ومخدراً للمسلمين من التهادى فى ذلك الخطأ والاستمرار فى المغازاة فى غير سبيل الله .

ويؤيد هذا المعنى قول الله سبحانه فى سورة الأنفال ، وقد نزلت بعد بدر وقبل أحد ، وكان الموقف بين أمة المدينة وخصومها خطراً ممثلاً باحتمالات الحرب ، ولكن كثيراً من القبائل كانت تدخل فى الإسلام أو تسالم أمة الإسلام ، وفى هذه المعاني تقول الآيات من ٦٠ إلى ٦٢ من سورة الأنفال أيضاً وهى الثامنة من سور القرآن : ﴿ وَاعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ تُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ ، وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْتَ بِبَنْصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وهذه الآيات واضحة بيّنة فيما يتصل بالسلم مع الأعداء للأمة دائماً أن تعد نفسها للقتال وتتسلح له أبداً لترهب العدو ، وهناك من الأعداء ناس لا يعرف المسلمون علام انطوت قلوبهم فليتركوا على حالهم ، لأن الله وحده يعلم مافى نفوسهم ، وجنحوا للسلم فليستجب المسلمون لدعوتهم للسلم ، وإن جنحهم للسلم خداعاً للمسلمين فلا بأس على المسلمين من ذلك ، لأن الله حسبهم وهو ناصرهم بإذنه كما أيدهم بنصره فى بدر .

* * *

والمادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لطبيعة الجهاد المستمر التى ينبغى أن تميز الإسلام ، فإن من أكبر وظائف أمة الإسلام أن تستمر فى جهادها بالحكمة والموعظة الحسنة حيناً وبالحراب حيناً ،

حتى يصير الدين كله لله ، أو حتى يدخل أهل الأرض جميعاً في الإسلام ، ولهذا فإن الجهاد ينبغي أن يكون عملية مستمرة لا توقف فيها ، والمسلمون جميعاً ينبغي أن يشتركوا في هذا العمل ، فمن لا يقاتل يستطيع أن يعين بهاله ، والأمة كلها مطالبة بأن تعوض من يضحى بدمه في سبيل الله ، وفي ذلك تقول الصحيفة :

« وإن كل غازية معنا يعقب بعضها بعضاً » . . أي أن كل غزوة أوسرية ينبغي أن تتبعها غزوة ، فتعاقب الغزوات والسرايا ويستمر الجهاد ، وإن المؤمنين يبىء بعضهم على بعض « أي يعوض بعضهم بعضاً » بما نال دماءهم في سبيل الله . . لأن أمة الإسلام ينبغي أن تكون كلها في المعركة . . من يقاتل يقاتل ، ومن لا يقاتل يعوض غيره عما يصيبه ، والقتال هنا يعني الجهاد أي العمل المستمر في سبيل نشر الدعوة الإسلامية .

* * *

والمادة الخامسة عشرة هي خير ختام لهذا القسم المدون من الصحيفة إنها تعطى القاعدة الخلقية والإنسانية التي ينبغي أن تكون أساس الحياة والعمل في أمة الإسلام ، وسنلاحظ أن كل قسم من أقسام هذه الصحيفة ينتهي بهادة خلقية من هذا الطراز لأن أمة الإسلام أمة أخلاق سامية . . أمة مكارم أخلاق مستمدة من الهدى الإلهي :

« وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه » . . أي أن أمة الإسلام ينبغي أن تكون دائماً على أحسن ما يكون من هدى القرآن ، ونلاحظ هنا أن هذه المادة تردد روحاً ولفظاً معنى قرآني هو الوارد في الآية التاسعة من سورة الإسراء وهي السابعة عشرة من سور القرآن :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ .

لهذا ينبغي أن يكون المؤمنون المتقون على أحسن هدى وأقومه ، فلا يكفي أن يكونوا على هدى بل لا بد أن يكونوا على أحسن الهدى وأقومه ، لأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، فإذا لم يكن المسلمون على هذا المستوى فهم لن يحققوا ما يطلب منهم .

أليست هذه خير أمة أخرجت للناس ؟ . . أليست هذه هي الأمة التي ينبغي أن تكون خير أمة أخرجت للناس ؟ إذن فلا بد أن تكون على أحسن الهدى وأقومه ، لا ضعف ولا تردد ولا ريبة ولا تقاعس . . إنها إيمان ثابت وهدى حسن سليم صحيح ، بل أحسن ما يكون من الهدى وأكثره استقامة . . وكيف لا تكون هذه الأمة على أحسن هدى وأقومه ومعها كتاب الله وفيها رسوله ؟ . .

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ .

(آل عمران الآية ١٠١) .